جوناثان ليونز

بيت الحكمة: كيف أسّس العرب لحضارة الغرب

ترجمة مازن جندلي

(بيروت: الدار العربية للعلوم – ناشرون؛ الكويت: مركز البابطين للترجمة، ٢٠١٠). ٢٨٧ ص.

فيصل درّاج(*)

ناقد أدبي.

ـ ١ ـ

تحمل الكلمات الموضوعة على غلاف الكتاب هدفه المعرفي الأساسي: «القصة المدهشة لما حقّقه العلماء العرب في العصور الوسطى من إنجازات متقدمة في العلم والفلسفة، وقصة الأوروبيين الجوّالين الذين نقلوا هذه المعرفة إلى الغرب». تعلن الصفتان: «المدهشة» و«المتقدمة» عن الروح التي كتب بها ليونز دراسته، التي تجمع بين إنصاف الدور الحضاري للعرب، في علاقته بنهضة الغرب في الأزمنة الحديثة، والركون إلى معرفة تاريخية واسعة تبرهن عن دور العرب في «اختراع الغرب»، كما يقول الكتاب، كما لو كانت الحضارة الغربية الحديثة تتويجاً مجهتداً للمعارف العربية، التي صعدت أيام الدولتين الأموية والعباسية، وانتقلت، لاحقاً، إلى الأندلس.

ولعل حماسة المؤلف للحاضنة العربية للمعارف والعلوم، في الزمن التاريخي المشار إليه، هي التي أملت عليه، في مستهل الكتاب، الأخذ بمصطلح «العلم العربي» بديلاً من «العلم الإسلامي»، ذلك أن تطور المعارف كان يجري باللغة العربية، علماً بأن المشاركين فيه كانوا عرباً وغير عرب ومسلمين وغير مسلمين... وهذا ما جعل من اللغة العربية، في ذلك الزمان، لغة عالمية للعلم، أو «لغة مشتركة» بين العلماء، ما دام تحصيل المعرفة كان يقضي بإتقان اللغة العربية، أو بالاستناد إلى النصوص التي ترجمت عنها. ومع أن الإسلام أدى دوراً مهماً في الحضّ على المعرفة، فقد آثر المؤلف أن يتحاشى مصطلح «العلوم الإسلامية»، الذي يشير إلى المعارف الدينية، والأخذ بمصطلح «العلم العربي»، الذي يشير إلى معارف أكثر اتساعاً، ترتبط بالطبيعة والكون والعلوم الدقيقة.

(*) البريد الإلكتروني: info@azminah.com.

ـ ٢ ـ

يستهل **الفصل الأول** من الكتاب بعنوان «جند الحملات الصليبية»، الذي يقدم إشارات متفرّقة عن تخلّف الغرب على مستوى المعرفة والقيم، وعن سيطرة بعض معايير الحضارة الإسلامية في «الشرق اللاتيني». وهذا ما جعل من «الحرب الصليبية» تعبيراً عن شعوذة دينية وفكر ديني متعصّب وميول وحشية لا تردع عن «أكل لحم البشر». قرأ المؤلف الفرق بين تحضّر العرب و«علماء الغرب»، الذي كان يعيش حالة من الفوضى في أواخر القرن الحادي عشر، مستفيداً من مراجع متعددة، منها ما خلّفه أديلارد أوف باث (Adelard of Bath)، الرحالة الذي وصل إلى أنطاكية في حوالى العام ١١١٤، وتعلّم اللغة العربية، وترجم الكثير من مآثر المسلمين.

اتكأ المؤلف على سيرة الإنكليزي أديلارد ليشرح وضع الغرب، عشية الحروب الصليبية، الذي تميّز بالضعف، وضعف السلطة السياسية، وتزايد الفقر، وتداعي المعارف، بعد أن «اختفت اللغة اليونانية جملة واحدة كلغة للعلم، واختفت معها عملياً قرون من المعرفة من العقل الجماعي لأوروبا الناطقة باللاتينية» (ص ٥٥). على خلاف ذلك، كانت العلوم عند العرب، في الشرق كما في الأندلس، قد بلغت حداً عالياً من الارتقاء والازدهار، مثل علم النجوم، والشكل الأول لما صار يعرف بعد ذلك بالأعداد العربية والإسطرلاب الإسلامي «أقدر حاسوب تماثلي حتى العصور الحديثة» وغيرها. ولهذا كان تحصيل المعرفة، في الطب والفلسفة والاختراعات التطبيقية، لا يتأتى إلا لهؤلاء الذين وجدوا منفذاً إلى المعارف العربية، التي ترجمها أصحاب الفضول المعرفي، حال «رهبان كاتالونيا»، على سبيل المثال.

وإذا كان بعض العقول الأوروبية القليلة قد أدرك «قوة العلم العربي»، فإن الغالبية العظمى قرأت العلم العربي بمقولة «السحر» ونظرت إليه بالكثير من الريبة: «ففي مجتمع كانت القراءة والكتابة والتعليم العام فيه أمراً نادراً، كان على الوعي العام أن ينظر إلى «الأفكار العربية الجديدة» نظرة شك واضطراب، لأنه كان يرفض أي نوع من «التعاليم غير الدينية». ساعد على ذلك اختلاف اللغة وتلك الاختراعات العربية، التي لا عهد للمجتمع «المسيحي» بها. لا غرابة أن يُتهم بعض العلماء المسيحيين، الذين اندفعوا إلى تعليم العلم العربي، بالسحر الأسود، كما لو كان في العلم العربي ما يحيل على الشيطان و«السحر الخطير». ساعد على ذلك تعاليم دينية مسيحية كانت ترى في الكون كله نصّاً دينياً، يترجم معاني المسيحية بأشكال مختلفة. وما إن جاءت الحروب الصليبية حتى أصبح الأمر أكثر تعقيداً، لأن هذه الحروب أنتجت صورة المسلمين بوصفهم «الآخر البغيض»، تلبية لاحتياجات أوروبا اللاهوتية والسياسية الخاصة في ذلك الوقت.

اتخذ مؤلف الكتاب من سيرة أديلارد، الذي وضع كتاباً مشهوراً عنوانه **الثابت والمتغيّر**، مناسبة للكشف عن «انحطاط الغرب»، قبل أن يصل إلى فصل الكتاب المركزي: «بيت الحكمة»، الذي يصف فيه مدى تطور الحضارة العربية في زمن الخلافة العباسية. فقد انفتحت هذه الخلافة

على ديانات وجنسيات مختلفة، سعياً إلى سلطة قوية قادرة على «تنظيم البلاد الإسلامية»، وإلى معارف تدعم «التنظيم» وتعطيه أسساً وطيدة. فتح هذا للعباسيين كتلة هائلة من المعارف اللغوية والمواهب العلمية والمعرفة الثقافية، بل إنهم خلقوا بوتقة ثقافية تذوب فيها عناصر من المعارف اليونانية والفارسية والسومرية والهندية... ولهذا «أصبح العلم حرّاً»، مهما كانت ديانة المشاركين فيه، تحت حماية المسلمين، وازدهرت «حواضر ثقافية» في أماكن مختلفة، تمتد من بغداد إلى سمرقند، ومن الأخيرة إلى دمشق، وصولاً إلى مدينة شاطبة الأندلسية.

قاد ذلك، لزوماً، إلى توليد النخبة العارفة وضرورة تأمين ما تحتاج إليه، حال مدرسة المستنصرية في بغداد في العام ١٢٣٤، التي قيل إن وقفها الأولي ضم ثمانين ألف كتاب هبة من مكتبة الخليفة (ص ٨٧). لازم ذلك اهتمام الدولة بالترجمة، حيث أمر أبو جعفر المنصور، على سبيل المثال، بترجمات كثيرة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، ومنها الأعمال القديمة لكبار العلماء الهنود والفرس واليونان، بل إنه وصل إلى «تحديد اتجاه البحث المستقبلي»، أو السياسة العلمية بلغة أخرى، منتهياً إلى مكتبة هائلة يعمل فيها جيش من العلماء أخذت اسم «بيت الحكمة»، وقد عبّرت عن الطموح الفكري العباسي الأول والسياسة الرسمية للدولة. أسهمت هذه السياسة في دعم السلطة، وفي تماسك الشريعة كقوة فكرية مركزية في الإسلام، كما يرى المؤلف، لأنها سمحت بالحوار والمناظرة والاختلاف، وأكدت الدين دافعاً إلى البحث والمعرفة والاكتشاف.

أنتج المناخ الحضاري العباسي، في زمن المأمون بخاصة، علماء كباراً في ميادين مختلفة، مثل البيروني في ميدان الفلك والرياضيات، والخوارزمي العالم الرياضي الأكثر خصباً في مجاله، إضافة إلى الاحتفاء بالترجمة، الذي أدّى إلى ترجمة أرسطو وبطليموس وتزايد الاهتمام بالفلسفة اليونانية. وفي هذا المناخ، أو ما هو قريب منه، ظهر أبو بكر الرازي، وعلماء اختصوا بدراسة الأمراض ومعالجتها، في مقدمتهم ابن سينا صاحب كتاب **القانون في الطب**، الذي بقي مرجعاً في الغرب أكثر من خمسمئة عام. فعلى خلاف الغرب المسيحي في العصور الوسطى، الذي مال إلى اعتبار الأمراض عقاباً إلهياً، بحث العلماء المسلمون عن الأمراض، في أسبابها البدنية واختلال الموازين الصحية. وكذلك الحال في حقل الجغرافيا، الذي تعامل معه العلماء المسلمون بالمعارف الرياضية، لا بالتصوّرات اللاهوتية المجرّدة، التي كانت سائدة في الغرب... جميع هذه العلوم وصلت، لاحقاً، إلى الغرب عن طريق جنوا والأندلس، ونشاط التجار العرب ورحلات الأوروبيين، والحروب الصليبية، في حملاتها المتعددة، التي جعلت الغرب يتعرّف على وجوه عديدة من «العلم العربي».

يفرد الكتاب صفحات كثيرة لدور المترجمين الأوروبيين في نقل «العلم العربي» إلى الغرب، مثل ترجمات أديلارد وولتشر وبطرس ألفونسي لأعمال الخوارزمي، إضافة، طبعاً، إلى التعريف بفلسفة أرسطو، الذي ترجمه العرب إلى لغتهم. لا غرابة أن يصبح تعلّم العربية، لدى بعض العلماء، جزءاً من المعرفة، وطريقاً إليها، وخاصة في زمن ازدهارها في الطور الأندلسي. وواقع

الأمر أن توسّع الإسلام وانتشاره في ثلاث قارات، جعلا تحصيل «المعرفة العربية»، بالنسبة إلى الغربيين، أمراً ممكناً، وهو الأمر الذي تحقّق لمدة أربعة قرون. وإذا كانت هذه المعرفة، في شكلها «الشرقي»، قد عرّفت الغرب على معارف متنوّعة، فإن المعرفة الواردة من الأندلس فتحت أمام «الغرب» معارف جديدة، ترتبط بالشعر الغربي والموسيقا والفلسفة وأصول الحياة اليومية... كان الإنكليزي تشوسر قد تعرّف عن طريق الأدب العربي إلى الشكل الأدبي المركّب، الذي يضع قصة في قصة، وأدرجه في عمله الشهير **حكايات كانتربري**، مثلما فعل الإيطالي بوكاشيو في **الديكاميرون** (**عمل الأيام العشرة**).

ـ ٣ ـ

أنهى المؤلف كتابه بفصل عنوانه: «اختراع الغرب»، وترك مساحة لعلاقة ابن رشد وأرسطو، فقد سعى الأول إلى مصالحة بين العقل والدين، وإلى التفسير الراشدي الواضح للفيلسوف اليوناني، المتمسك بروح الدين ومعنى الفلسفة، الذي كانت له آثاره الفاعلة في الفكر الأوروبي. ولهذا تعامل هذا الفكر مع «أرسطو العربي»، لا المفكر الوثني ليونان القديمة، منتجاً فصلاً حاسماً بين اللاهوت والفلسفة. وكما صحّح ابن سينا وابن رشد «ما بعد طبيعة أرسطو»، وأسهما في ظهور العقل الأوروبي الحديث، فقد كان لهما دورهما، كما لعلماء عرب آخرين، في ولادة أفكار كوبرنيكوس الفلكية، ونظريات إسحاق نيوتن لاحقاً. ولعل واقع توطّد «العلم العربي» وتوزّعه وانتشاره وتأثيره في ثقافات مختلفة هو الذي أتاح له أن يستمر، طويلاً، بعد انهيار الدولة العربية، في الشرق والأندلس، معاً.

أمران قصدهما جوناثان ليونز في كتابه: الكشف عن الحقيقة، بعيداً عن نزوعات أيديولوجية غربية، تنفي أثر الثقافة العربية في ولادة الأزمنة الأوروبية الحديثة، والإعلان أن «الغرب هو من اختراع العرب»، فلولا العرب لبقي الأوروبيون حيث كانوا، مزيجاً من «الفوضى والخوض في دماء البشر». قال أديلارد: «إن الله بالطبع يحكم الكون. لكن يحق، بل ينبغي، لنا النظر في ملكوت العالم الطبيعي، ذلك ما يعلمنا إياه العرب». صاغ المؤلف بحثه معتمداً على معرفة واسعة، وآخذاً بلغة سهلة، وبأسلوب مشوّق، له شكل الحكايات أحياناً □